22

البعث والقضية الفلسطينية
وثائق للتاريخ

الفكرة الصهيونية

من التكوين النظري الى الأداة التنظيمية

بقلم الشهيد الدكتور
عبد الوهاب الكيالي





تونس 1986

« لقد ارادوا ان تمتد حدود دولة فلسطين اليهودية الى ابعد ما وصلت اليه حدودها في اي حقبة من حقب التاريخ » .

هانز كوهن

من مقالته « صهيون والفكرة القومية اليهودية »

١٩٥٨

« ليس من السخف ان نتصور قادة العرب يطالبون في المستقبل بالحاح « بالعودة الى حدود عام ١٩٦٦ او عام ١٩٦٧ » تماماً كما يطالبون اليوم بالعودة الى حدود ١٩٤٧، تلك الحدود التي رفضوها في الماضي».

ابا ايبان

وزير خارجية اسرائيل

في مقالة نشرها في مجلة « فورين افيرز » الاميركية

صيف ١٩٦٥

الفِكرَة الصّهيُونيّة :
مِنَ التكوين النَظري إلى الأداة التَنظيميّة

عبد الوهاب كيالي

تموز/يوليو ١٩٦٦

مقـدّمة

تحتل القضية الفلسطينية الحيز الاكبر من الاهتمام السياسي في الوطن العربي لكونها القضية العربية الاولى وميـــدان الصراع التاريخي الحاسم بين القوى الخارجية المتآمرة على الكيان والوجود القومي للعرب وبين قوى الحياة والنماء والتقدم في الوطن العربي .

وعلى الرغم من هـــذا الاهتمام السياسي اليومي فان الخطر الصهيوني على المصير العربي لم ينل حقه من التفكير والتحليل العلمي ولم يأخذ قسطه من الجهد الفكري الجدي عند المفكرين العرب الذين احجموا حتى الآن – بشكل عام – عن دراسة العقل والتفكير الصهيوني دراسة علمية شاملة تضيء الطريق امام معرفة مخططات العدو ومطامعه واساليبه وغاياته سلفاً في كل مجال وعلى كل صعيد .

كثيرون هم الذين يعتقدون بان العدوان الصهيوني كان كارثة حلت بشعب فلسطين وان ما تبيته الدولة الصهيونية من عدوان وتآمر لا يتعدى نطاق الرقعة الفلسطينية ، اي ان هناك من

يعتبر الخطر الصهيوني مشكلة قطرية تهم شعب فلسطين بالدرجة الاولى والاخيرة وان دور الاقطار العربية او موقفها لا يتعدى نطاق المساندة والولاء للأخاء العربي . بل ان بعضهم يعتقد ان الحديث عن المطامع التوسعية الاسرائيلية لا يعدو كونه حديثاً دعائياً فيه الكثير من الخيال والاوهام وان لا وجود لهـــذه المطامع والمخططات العدوانيـــة الصهيونية في عالم الحقائق والوقائع .

ان هذه النظرة وتلك الآراء تعود في مجملها الى الجهل بماهية الحركة الصهيونية واهدافها ومخططاتها . ولئن اعتبر الفلاسفة واهل الفكر شعار « اعرف نفسك » بمثابة رأس الحكمة ومفتاح التبصر ، فان « معرفة العدو » فرضية حتمية لا بد منها في مجال تحقيق معرفة الذات وتقويتها وتعزيزها وحمايتها من الزوال والاندثار .

والحقيقة التي تبدو جلية واضحة لكل متتبع لفكر العدو ودوافع اعماله ومخططات مستقبله هي ان الصهيونية **خطر قومي** يهدد كيان الامة العربية التاريخي الحضاري . وانها **خطر مادي** يهدد جميع الدول المجاورة للدولة الصهيونية بالغزو والعدوان والاحتلال .

أ – المراحل الاولى : التكوين النظري

ان البحث عن جذور المطامع الصهيونية والاطار الفكري والتخطيطي للاعمال العدوانية الاسرائيلية يردنا الى نشأة الفكرة الصهيونية ودوافع ظهورها ، اي الى اصول هـــذه الفكرة وركائزها ومفاهيمها واهدافها . وهنا لا بد لنا من التفريق بين مرحلتين : مرحلة ما قبل عام ١٨٩٧ ، حين كانت الصهيونية في طور التكوين الفكري ، ومرحلة ما بعد عام ١٨٩٧ ، عندما اتخذت الحركة الصهيونية شكلها التنظيمي واصبح للفكرة اداة تعمل بشكل دائب ومستمر لتحقيق غايات هذه الحركة كما رسمها المؤتمر الصهيوني الاول الذي عقد في مدينة بال السويسرية في ذلك العام .

يقول اسرائيل كوهين في كتاب له عن تاريخ الصهيونية [١] ان غاية الفكرة الصهيونية هي « اعادة اليهود كأمة الى فلسطين باعتبارها وطنهم القومي القديم » . بيــد ان تبلور الفكرة الصهيونية على هذا الشكل لم يتحقق الا في تسعينات القرن التاسع عشر . ففي القرن الثـــامن عشر لم تكن الصهيونية لتتجاوز

---

(١) اسرائيل كوهين « A Short History of Zionism » (تاريخ الصهيونية المختصر) ، نيويورك ، فردريك مولر ، ١٩٥١ .

تعلق اليهود الروحي بنصوص التوراة وطقوس الاعيـــاد والاحتفالات الدينية ، ولم يكن تعلق اليهود « بصهيون » يعني العودة الفعلية الجسدية الى القدس . وكانت دوافع رغبة بعض اليهود في العودة الى فلسطين دينية محضة .

والسبب في التأكيد على الجانب الديني والروحي عند اليهود في القرن الثامن عشر حتى منتصف التاسع عشر يعود الى اتجاه الغرب نحو التسامح الديني . ولكن بعض بناة الامبراطوريات في الغرب وجدوا ان الاستعانة باليهود عن طريق اثارة الشعور الديني – القومي بالرغبة في العودة الى فلسطين يخدم مصالحهم في منطقة الشرق الاوسط. وقد كان الاقتراح الذي تقدم به نابليون بونابرت عام ١٧٩٩ اثناء حصاره لمدينة عكا ، عندما دعا اليهود للانضواء تحت علمه لاعادة تأسيس القدس القديمة واطلق على اليهود لقب الورثة الشرعيين لفلسطين ، هو الاول من نوعه في عصر ما بعد النهضة الاوروبية . ويذهب بعض المؤرخين الى القول ان نابليون قد تأثر برسالة احد اليهود الفرنسيين حول ضرورة تجمع اليهود كأمة في القـــدس كنتيجة لفشل الثورة الفرنسية في تحقيق التسامح الديني . الا ان ناحوم سوكولوف يؤكد في كتابه « تاريخ الصهيونية »[٢] ان نداء نابليون كان

---

(٢) ناحوم سوكولوف « History of Zionism » (تاريخ الصهيونية) ، لندن ، لونغمان غرين وشركاه ، ١٩١٩ ، الجزء الاول .

يرمي الى كسب ولاء حايم فارحي اليهودي الذي كان لمدينة عكا بمثابة العصب المالي والتمويني . وعلى اي حال فان محاولات نابوليون في هذا المجال لم تؤد الى مضاعفات تذكر .

وفي مطلع القرن التاسع عشر شهدت بريطانيا تبني بعض رجال الدين المسيحي لدعوة عودة اليهود الى فلسطين تنفيذاً لوعود التوراة وعلى امل ان يؤدي ذلك الى دخول اليهود في الدين المسيحي[٣] . كذلك ظهر بعض التشجيع لفكرة السهر على سلامة اليهود المقيمين في القدس ورفـــع مستواهم انطلاقاً من دوافع دينية وانسانية . ولكن تلك الفكرة لم تتخذ شكلاً عملياً لانعدام وجود منظمات تنفيذية .

بيد ان التبني الحقيقي لفكرة تشجيع استقدام جاليات يهودية قد وجد مجاله الحيوي عند بناة الامبراطورية البريطانية ، من امثال اللورد شافتسبري ولورانس اوليفانت ، وعند بعض القادة العسكريين البريطانيين ، من امثال الكولونيل تشارلز هنري تشرشل والكولونيل كوندر والكولونيل جورج غولر ، لاسباب تتصل بسياسة بريطانيا ومطامعها ومصالحها الاستعمارية في المنطقة .

---

(٣) كوهين ، ص ١٦ .

اما ردة الفعل عند اليهود فقد ارتبطت بظهور « المشكلة اليهودية » في القرن التاسع عشر ومحاولة بعض اليهود ايجاد حل لهذه المشكلة بتأثير من الظروف والآراء والاتجاهات السائدة في اوروبا . ولكن ما هي « المشكلة اليهودية » .

يقول تيودور هيرتزل في كتاب « الدولة اليهودية »[٤] ان اليهود يعانون من الاضطهاد اينما وجدوا باعداد كبيرة ، وقد اتهم جميع الامم التي يوجد في مجتمعاتها جاليات يهودية باللاسامية « سواء مكبوتة او معلنة »[٥] . اما اسباب اللاسامية عنده فكثيرة ، اهمها فقدان اليهود المقدرة على الاندماج بالمجتمعات الغربية في العصور الوسطى[٦] ، وانصراف الاغنياء من اليهود الى المرابات والتحكم في القطاع المالي ، وهو ما يسبب كراهية الناس لهم .

غير ان التعمق في البحث عن اسباب ظهور (الحلول الصهيونية) « للمشكلة اليهودية » يقودنا الى التعرض لهذه الحلول ضمن اطار تفاعلها التاريخي مع الاحوال والآراء السائدة في

---

(٤) تيودور هيرتزل « The Jewish State » (الدولة اليهودية) ، لندن ، ريتا سير ، الطبعة الرابعة ، ١٩٤٦ ، ص ٢٢ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٣ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٢٦ .

اوروبا في القرن الماضي . ولن نتعرض في هذا المجال الى تلك الحلول بالتفصيل بل يكفينا ان نلقى عليها نظرة سريعة .

على الرغم من تقدم العديد من اليهود والمسيحيين باقتراحات تطالب بايجاد مستعمرات يهودية في فلسطين او باعادة بناء دولة اسرائيل في الارض المقدسة فان آراء زفي هيرش كاليشر (١٧٩٥ – ١٨٧٤) كانت الاولى من حيث الالتزام بالجدية والدعوة الى العمل التنفيذي والانطلاق من حجج دينية، ومن حيث انها ادت الى انشاء جمعيات اخذت على عاتقها القيام بمهات العمل الاستعماري على ارض فلسطين [٧] .

استند كاليشر في كتابه « البحث عن صهيون » الى فقرات من التلمود وقال بان خلاص اليهود لن يتحقق على يد مسيح منتظر بل عن طريق العمل على تخليص الذات ، وان على اليهود ان يبادروا الى استعمار فلسطين فوراً ودون تردد . كذلك حث اغنياء اليهود على انشاء جمعية تتولى استعمار فلسطين وتشجيع يهود شرق اوروبا والمانيا على الهجرة الى فلسطين وتكوين حرس من الشباب القومي لحماية هذه المستعمرات وانشاء مدرسة زراعية في فلسطين لتدريب البنات والاولاد من اليهود

---

(٧) اسرائيل كوهين « The Zionist Movement » (الحركة الصهيونية) ، لندن ، فردريك مولر ، ١٩٤٥ ، ص ٥١ .

على اعمال الزراعة [٨] . واستجابة لنداء كاليشر وبالتعاون معه اسست في برلين عام ١٨٦٤ «جمعية استعمار ارض اسرائيل»، كما اقـــدمت الجمعية اليهودية الفرنسية Alliance Israelite Universelle على تأسيس اول مدرسة زراعية يهودية في فلسطين بالقرب من يافا بناء على إلحاح كاليشر [٩] . وهكذا يكون كاليشر قد حث على العودة الى فلسطين عن طريق الهجرة والاستعمار وقدم حله « للمشكلة اليهودية » من منطلقات دينية .

بيد ان الحلول الصهيونية «للمشكلة اليهودية» كانت اكثر تأثراً بالتيار القومي ـ العنصري في اوروبا منهـــا باية تيارات فكرية اخرى ، لا سيا وان القرن التاسع عشر هو عصر القوميات والوحدات القومية في اوروبا . وقد تأثر موسس هيس (١٨١٢ ـ ١٨٧٥) بنجاح الدعوة القومية الايطالية في توحيد ايطاليا فدعا في كتابه « روما والقدس » الى قومية يهودية قائلاً : انه « ما من شعب معاصر يناضل من اجل بلاد اجداده يستطيع ان ينكر حق الشعب اليهودي في ارضه الخاصة به دون ان يوقعه ذلك في تناقض صارخ » [١٠] . وقد طالب الكاتب فرنسا بايجاد مستعمرات يهودية من السويس الى القـــدس ومن الاردن الى المتوسط، ولكن هذه الدعوة ذهبت ادراج الرياح نظراً للظروف

---

(٨) المصدر نفسه .
(٩) المصدر نفسه .
(١٠) المصدر نفسه ، ص ٥٢ .

المواتية لاندماج اليهود الالمان في مجتمعاتهم آنذاك ولانه لم يكن بامكان اليهود في البلاد الاخرى الاطلاع على اعمال هيس بسبب الحواجز اللغوية [11] .

وقد تعزز الاتجاه نحو اعتناق فكرة القومية اليهودية اثر اغتيال اسكندر الثاني قيصر روسيا عام ١٨٨١ وازدياد وطأة اضطهاد اليهود هناك . وفي عـــام ١٨٨٢ نشر ليو بينسكر (١٨٢١ – ١٨٩١) كتابه « التحرير الذاتي » ، الذي اظهر فيه بوضوح الحل القومي للمشكلة اليهودية عن طريق تجميعهم كأمة في فلسطين او في غيرها من البلدان وشدد على اهمية مبادرة اليهود انفسهم الى حل « مشكلتهم » . وقد استند بينسكر في حله المقترح الى الرأي القائل بان التقدم البشري العام لن يحسن من وضع اليهود ولن يخفف من قلقهم « وان اللاسامية لا يمكن ان تزول طالما اننا (اليهود) لا نملك وطنا قوميا خاصاً بنا » [12] . والسبب في ذلك ، في رأي بينسكر ، يعود الى الظن بان الشعور بالكراهية نحو اليهود واحتقارهم متأصل في النفسية البشرية [13] .

لاقت آراء بينسكر هذه تجاوباً كبيراً لدى اعضاء جمعيات « حب صهيون » التي انتشرت في اعقاب عام ١٨٨٢ والتي كانت تنادي بعودة اليهود الى فلسطين واستعمارهم لاراضيها . وقد

(١١) كوهين، (المختصر)، ص ٢٢ .
(١٢) سوكولوف ، ص ٢٢٤ .
(١٣) المصدر نفسه .

شارك بينسكر في اعمال هذه الجمعيات ومهد فكراً وتنظيماً لنشوء الحركة الصهيونية العالمية .

ولكن آراء بينسكر واعمال جمعيات حب صهيون سرعان ما تعرضت لانتقادات واحد من كبار المفكرين السياسيين اليهود في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ونعني به اشر غينزبرغ ١٨٥٦ - ١٩٢٧ المعروف بـ « احد ها عام » . فقد ذهب احد ها عام الى القول بأن منطلقات جمعيات حب صهيون قدمت تصوراً خاطئاً لحل مشكلة اليهود اذ اقترحت اعادتهم وتجميعهم في فلسطين . وقال ان الحل لا يتم بواسطة نقل اليهود من مكان الى آخر بـــل عن طريق الحفاظ على الروح اليهودية وتطويرها (١٤) . اما طريقة تحقيق ذلك فمتصلة بايجاد مركز روحي ثقافي يهودي في فلسطين . وهكذا سعى احد ها عام الى حل المشكلة اليهودية عن طريق الاحياء الثقافي والروحي لليهودية وعرفت صهيونيته بالصهيونية الثقافية او بالصهيونية الروحية .

وفي عام ١٨٩٦ نشر تيودور هيرتزل كتابه الشهير « الدولة اليهودية » الذي بلور الفكر الصهيوني وحـــدد معالم الطريق الصهيوني الى حل « المشكلة اليهودية » . انطلق هيرتزل من التسليم بوجود « المشكلة اليهودية » في كل مكان يوجد فيه اليهود

(١٤) كوهين ، (الحركة) ، ص ٦٣ .

باعداد كبيرة ، وقال بان هذه المشكلة سوف تستمر حتى تجد حلاً سياسياً . والمشكلة – في نظره – هي اللاسامية . اما اسبابها فعديدة اهمها فقدان اليهود القدرة على الاندماج في المجتمعات التي يقيمون فيها منذ العصور الوسطى ، لتعاطيهم اعمال الربا على نطـــاق واسع ، وسيطرة الاغنياء منهم على القطاعات المالية ، واتجاه البروليتاريا اليهودية نحو الانخراط في صفوف الاحزاب الثورية .

وقد وضع هيرتزل خطة في كتابه المذكور لتحقيق الحل[١٥] تتلخص في الحصول على قطعة من الارض ، تكون كافية لسد الحاجات المشروعة للامة ، على ان يترك تنفيذ الباقي لليهود انفسهم . وفي مجال تحديد قطعة الارض اشار هيرتزل الى ان الاقتراحات الرئيسية تتركز حول فلسطين والارجنتين . ومع ان هيرتزل لم يعلن خياره النهائي في كتابه ، فقد اعرب عن شعوره بان فلسطين هي الوطن التاريخي لليهود وان اسمها سوف يجذب الشعب اليهودي بقوة[١٦] .

كان اقدام هيرتزل على نشر كتابه ايذاناً ببـــدء جهوده الواسعة من اجل انشاء حركة صهيونية عالمية تعمل على قيام الدولة اليهودية التي دعا اليها في كتابه كحل «للمشكلة اليهودية» ؛ تلك الجهود التي اينعت ثمارها في ٢٩ آب ١٨٩٧ حين جمع هيرتزل ممثلين عن اليهود في اقطار اوروبية واميركية عديدة وعقد

---

(١٥) هيرتزل ، ص ٢٨ – ٣٠ .

(١٦) المصدر نفسه .

المؤتمر الصهيوني الاول برئاسته واقر ما سمي ببرنامج بال .

وقبل الانتقال الى الحديث عن تبلور الحركة الصهيونية العالمية واعتمادها الشكل التنظيمي الشامل لا بد من الاشارة الى المعارضة الواسعة النطاق التي واجهتها الصهيونية في صفوف اليهود انفسهم في كل مكان . وقد فصّل البروفسور هانز كوهن، في مقـــاله عن الصهيونية في «دائرة المعارف البريطانية»، الاتجاهات المعارضة للصهيونية في صفوف اليهـود وقسمها الى فئات ثلاث :

١ — فئة الاندماجيين : وهي فئة ترى ان اليهودية ديانة كغيرها من الديانات وبالتالي لا علاقة لها بقومية معينة او حركة عنصرية ، وان ولاء اليهودي من الناحية السياسية يجب ان يكون للدولة التي ينتمي اليها وللمجتمع الذي يعيش فيه .

٢ — فئة المطالبين بالقومية اليهودية في المنفى : وهي الفئة التي تنادي بضرورة تكتل اليهود حيثما وجدوا على اساس انهم اقلية قومية في المجتمع الذي يعيشون فيه .

٣ — اما الفئة الثالثة فهي الفئة التي تقول بان العودة الى فلسطين هي عودة دينية ولا تتم الا بمشيئة ربانية بموجب القوانين والتعاليم الدينية .

ومهما يكن من امر ضعف انتشار الفكرة الصهيـــونية في صفوف اليهود قبل عام ١٨٩٧ ، فان اعلان الفكرة القومية

اليهودية بشكل محدد واضح المعالم في مؤتمر بال واعتماد العمل التنظيمي الشامل والعمل المترابط الجاد من اجل تنفيذ المخطط الذي وضعه المؤتمر الصهيوني الاول مكن الصهاينة من احراز صفة الاقلية الناشطة النافذة في فترة وجيزة جداً .

ب — المرحلة التنظيمية الشاملة

بعد ايام من اختتام المؤتمر الصهيوني الاول في بال كتب هيرتزل في مذكراته يقول :

« لو اردت ان ألخص اعمال مؤتمر بال في كلمة واحدة — وهذا ما لن اقدم على الجهر به — لقلت : في بال اوجدت... الدولة اليهودية . ولو جهرت بذلك اليوم لقابلني العالم بالسخرية. في غضون خمس سنوات ، ربما ، وفي غضون خمسين سنة بالتأكيد سيراها الجميع . ان الدولة قد تجسدت في ارادة الشعب في اقامتها » [١٧] .

فما الذي حدث في بال وما هي المبادىء والقرارات التي خرج بها المؤتمر ؟

---

(١٧) « مذكرات تيودور هيرتزل الكاملة » تحرير رافايل باتاي ، ترجمه (الى الانكليزية) هاري زوهن، نيويورك، هيرتزل بريس وتوماس يوسيلوف، ١٩٦٠ ، الجزء الثاني ، ص ٥٨١ .

١ — الهدف

لقد وحد المؤتمر الصهيوني الاول الافكار والحلول الصهيونية ليجعل منها عقيدة صهيونية لهـــا اهدافها الثابتة وخطوطها الستراتيجية والتكتيكية وادواتها ووسائل تحقيقها البشرية والمادية :

« ان غاية الصهيونية هي خلق وطن للشعب اليهودي بفلسطين يضمنه القانون العام . ان المؤتمر يرى في الوسائل التالية الطريق الى تحقيق هذه الغاية :

٢ — الوسائل

« ١ — العمل عـــلى استعمار فلسطين بواسطة العمال الزراعيين والصناعيين اليهود وفق اسس مناسبة .

« ٢ — تنظيم اليهودية العالمية وربطها بواسطة منظمات محلية ودولية تتلاءم مع القوانين المتبعة في كل بلد .

« ٣ — تقوية وتغذية الشعور والوعي القومي اليهودي .

« ٤ — اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على الموافقة الحكومية الضرورية لتحقيق غاية الصهيونية » .

وبذلك اعلن المؤتمر الصهيوني الاول ان اليهود يشكلون وحدة دينية – عنصرية وانهم شعب بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، وبالتالي ان لهم الحـــق في الحياة كأمة على رقعة من الارض خاصة بهم ، وان هذه الارض هي ارض الميعاد والاجداد: فلسطين. وهكذا انطلقت الصهيونية **من اعتبار الوطن القومي اليهودي وطناً لجميع اليهود** بحكم انتماء كل يهودي الى « الامة اليهودية » ذات الحق التاريخي المزعوم في « استرداد » فلسطين بعد الفي سنة من التشرد !

وبالاضافة الى تحديد الاهداف حـــدد المؤتمر الوسائل : **التنظيم** (خلق الوعي القومي اليهودي وتعبئة الجهود اليهودية العالمية) **والاستعمار** (الهجرة وبناء المستعمرات) **والدبلوماسية** (المفاوضات) . وما هي الا فترة وجيزة حتى اصبح للصهيونية منظماتها ومؤسساتها الفعالة الناشطة : المؤتمر الصهيوني ، واللجان التنفيذية والاستشارية ، « والمصرف اليهودي للمستعمرات » (١٨٩٨) « ولجنة الاستعمار » (١٨٩٨) « والصندوق القومي اليهودي » (١٩٠١) . وكان الهدف من انشاء تلك المؤسسات هو تمويل عمليـــة استعمار فلسطين وتنظيمها وربطها بالجهود الصهيونية الشاملة لتنفيذ اهداف مؤتمر بال .